مقدمة

لا شك في أن اللغة العربية تعاني من التراجع والإهمال ، ولم ينفعها أو يشد من عزم أبنائها كونها واحدة من سبع لغات عالمية معترف بها لكي تتصدر المحافل الدولية ، وأنها واحدة من أقدم اللغات المعروفة في العالم ؛ بل إنها من أكثرها ثراءً في المفردات واستجابة لمتطلبات الحداثة الثقافية والصناعية . ومن المحزن أن هذا التراجع لم يحدث مع هذه اللغة العظيمة إلاَّ بازدياد تعداد أبنائها الذين بلغوا في أقرب احصائية قرابة ثلاثمائة مليون نسمة، فضلاً عن الناطقين بها في الدول الإسلامية من غير العرب ؛ وهم يعدون بالملايين في القارة الأسيوية وغيرها من القارات .

إن قراءة واعية وعميقة لعوامل التراجع الذي أدرك اللغة العربية في الآونة الأخيرة، والبحث في أسباب الإهمال الذي تلقاه من أبنائها ، ومع أنها لغة العلم والمعرفة ، ولغة الايجاز والكثافة ، تفضي إلى أن عامل التجزئة والتشظي الذي أصاب الأمة (وهو أخطر ما بليت به الأمة) يعد في مقدمة العوامل والأسباب التي أدت إلى تعثر اللغة العربية وإلى خطورة أن تحل العاميات المحلية محلها مما فاقم الإحساس بصعوبتها وأضعف الشعور

بأهميتها . يحدث ذلك بأسف شديد بعد ما أثبتت هذه اللغة في القرن العشرين قدرة فائقة في استيعاب التحولات المعاصرة والتعبير عنها في قوالب وصياغات حداثية بالغة الدقة والعمق والجمال . وتؤكد على أن هذه التجزئة أدّت إلى ضعف اللغة العربية ووقوفها الخجول عند الأبواب المؤدية إلى حقول العلم والفن والفلسفة بعد أن كانت الرائدة فيها وواضعة الأسس الأولى لمفاهيمها ومصطلحاتها .

يضاف إلى ما سبق غياب المعلم القدير الواعي لمهمته والعارف باللغة وخصائصها وطرق تدريسها ، وإلى هذا الأخير بخاصة يعزى القصور وتتركز أسباب الانحسار الذي تعرضت وما تزال تتعرض له اللغة العربية في المدارس والجامعات . وتبقى حالة اللامبالاة التي تمارسها الأنظمة العربية مثار سؤال كبير باعتبار اللغة جزءاً من الهوية الوطنية والقومية وإصلاح شأنها ومحاولة إخراجها من دائرة الإهمال إلى دائرة الاهتمام يعتمد على قرار سياسي ملزم وفعال .

تمهيد

في البدء كانت الكلمة . . قول استهلت به البشرية وجودها الناطق ، وارتفعت به ومعه من المرحلة الحيوانية إلى المرحلة الإنسانية بكل ما رافقها من تدرج في الإبداع ورقي في الحضارة . وما كان للإنسان – بدون الكلمة – أن يتمتع بكل هذه الإنجازات التي رافقت تطوره التاريخي وقادته إلى صياغة ثقافات ومعارف متنوعة الرؤى والأشكال . وقبل كل منعطف حاسم نحو التغيير كانت الكلمة – اللغة هي التي تتولى مسئولية التأثير والاستجابة . وعندما كانت المعادلة تتشكل أحياناً من تصادم القول والفعل ، كان الاعتبار الأول للكلمة بوصفها المحرض الأول والدافع لوضع أساس منهج كل فعل . حدث ذلك في الماضي ويحدث الآن وسيظل يحدث في المستقبل . ومن حقنا أن نقول ، من منطلق الخبرة الواقعة لا من منطلق المحبة للغة أن الصياغة الركيكة للتغيير في أمة ما هي إلاَّ التعبير الواقعي للصياغة اللغوية الركيكة في هذه الأمة .

وكثيرون هم العرب الذي أحبوا لغتهم قديماً وحديثاً ورأوا فيها واحدة من اللغات العالمية القادرة على مشاركة الإنسان في نموه المعرفي وتطوره العلمي . وهذا رأي بصوت أحد هؤلاء المحبين عن وعي ، والمخلصين عن دراية لما تستطيع اللغة العربية أن

تضطلع به في العصر الحديث انطلاقاً مما تملكه من امكانات وما تتمتع به من خصوصية وثراء .

" لا نغالي إذا قلنا إن العرب يمتلكون منذ عصور سحيقة أجمل كائن مبدع عاش معهم منذ القدم وامتد معهم عبر تاريخ طويل ، وشاركهم التقدم والحياة في كل لحظة تاريخية باعتباره ذلك "الكائن" الذي ليس باستطاعة أي إنسان العيش بدونه ، فإذا ما أعتنى به عناية فريدة وخاصة نما وأخصب وتطور وأزدهر ، فكان عنوان هوية راقية وتحضر كبير ، وإذا ما أهمل المجتمع هذا " الكائن" الرائع المبدع ، فتصيبه الأوجاع والضعف والخلل ، وخصوصاً العرب الذين لم يدركوا البتة قيمة كائنهم اللغوي المبدع الحي الذي صدق فيه توصيف حافظ إبراهيم " البحر الذي تزخر احشاؤه بالدر المكنون " ، وعلى الرغم من تقلب الأوضاع والأحوال التي مرت بها لغتنا العربية عبر تاريخها الطويل ، واتساع مدى انتشارها في قلب العالم ، فإنها لم تصادف أبداً من التعدلات والتغيرات ، بل حتى التحديات كما تصادف ذلك اليوم في عصرنا هذا ، وخصوصاً في تضاعيف القرن العشرين » (١)

ولكن المحبة وحدها لا تكفي للمحافظة على هذا الكائن اللغوي المبدع وتطويره . فالعمل الدؤوب والجهد المتواصل والاستعانة بما وصلت إليه الأساليب الحديثة في تعليم اللغات وتعميمها في دور التعليم هو ما سيؤدي إلى بناء هذا الكائن المبدع

ونموه فضلاً عن إبقاء الصلة حية ومتينة مع تراثنا العربي شعراً ونثراً دون انغلاق أو اجترار ويمكن أن نستخلص من هذا كله : « أن لغتنا الجميلة ظلت عبر القرون الطويلة ، صامدة نابضة ، بفضل انفتاحها المستمر على الحضارات والثقافات ، واتجاهها الدائم إلى المستقبل ، وأنها كانت تفقد حيويتها وجِدَّتها ونبضها ، عندما يتوقف انفتاح أصحابها على الجديد الذي تزخر به حياتهم وينغلقون على أنفسهم مضفاً واجترار ، وعندما يصبح الماضي مثلهم الأعلى المقدس ، تتجه إليه رؤوسهم ، دون أن تتجه إلى حيث الهدف الطبيعي ، والغاية الأصيلة . . المستقبل »(٢)

وثبت بالتجربة العينية والعملية أن العناية باللغة عند الإنسان تبدأ منذ طفولته الباكرة ، من البيت والأسرة ، قبل المدرسة ، وهذا ما يتحقق عند سائر الأمم وخاصة الأمة الحريصة على لغاتها والمعتزة بها بوصفها هوية ولساناً ومصدر معرفة . وهذا النهج ليس غربياً ولا شرقياً ولكنه عربي ، ونحن نتذكر بكل الإكبار والإعجاب طفولة رسولنا الكريم محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام وكيف أمضى الجزء الأول منها في بنى سعد ليقوي بدنه ولغته مع أنه ولد في قريش وهي من أشهر قبائل العرب وأكثرها حرصاً على لغة الضاد ، ويبدو أننا تناسينا هذه الواقعة التاريخية وغابت عنّا أمثولتها النبيلة . وهي واقعة تنبئ عن قيمة خاصة في التربية وإلتقاط المبادئ اللغوية إيماناً بأن الطفل هو الرجل، وأن الخطوات الأولى في حياته هي أساس لزمن الرجولة .

وعلى الذين لا يكفون عن الشكوى من الازدواجية اللغوية في حياتنا العربية أن يدركوا أن هذه الإزدواجية قائمة في كل اللغات . وأن البيت الإنجليزي كالفرنسي لا يتكلم الأول لغة أكسفورد ولا الثاني لغة السوربون . لكن تضافر الجهود بين البيت والمدرسة والبيئة في هذه الشعوب هي التي تحد من هذه الإزدواجية اللغوية وتعمل على إيجاد حالة من احترام اللغة السليمة والتهيب من الخروج على قواعدها . يضاف إلى ذلك أن الشعوب المتقدمة قد وصلت إلى درجة من الرقي في التعبير وإنها قد اعطت اهتماماً خاصاً بدراسة اللغة عند الطفل ونمو التمثلات الدلالية في عقله الصغير ، وهو ما لم يتم التنبه إليه عندنا حتى الآن .

إن الدراسات المحدودة التي ظهرت في مجال الدراسات اللغوية عن الطفل أخيراً ، يعود الفضل فيها إلى الترجمة لا إلى التأليف ، فقد احتوت – أي هذه الدراسات – على عشرات المراجع التي تدرس التصورات التكوينية للغة في وجدان الطفل ومظاهر اكتساب التمثلات الدلالية للأفعال على وجه التحديد . وهذا ما سعى إلى تأكيده الدكتور الغالي أحرشاو في كتابين له عن (الطفل واللغة) حين يقول في مقدمة الكتاب الأول : « في الواقع لا يوجد حسب معرفتنا الحالية إلاَّ جملة محدودة من الأعمال التي أنصب اهتمام أصحابها على دراسة دلالة بعض الأفعال في اللغتين الإنجليزية والفرنسية .، أما بالنسبة للغات الأخرى بما في ذلك اللغة العربية فإن الخوض في هذا الموضوع مايزال في لائحة

الانتظار ، ومن خلال إطلاعنا على الأطروحات والخلاصات الأساسية لهذه الأعمال وجدناها تتوزع إلى تصورين نظريين متباينين :

يتعلق أولهما ، وهو عقلاني النزعة بالإعداد القبلي للنموذج النظري الواجب اعتماده في وصف التمثيلات الدلالية لبعض الأفعال ثم العمل بعد ذلك على التحقق التجريبي مما إذا كان الطفل يتوفر فعلاً على تمثلات دلالية مطابقة لمضامين هذا النموذج . . . . .

ويرتبط ثانيهما ، وهو أمبريقي النزعة ، بالتفاؤل التجريبي المباشر لدلالة المعارف التي اكتسبها الطفل بما في ذلك دلالة بعض الأفعال »(٣)

لقد شغل العلماء والباحثون في هذه اللغات الواسعة الانتشار أنفسهم بأمور تبدو لنا لأول وهلة غير ذات أهمية نتيجة الركود والكسل العقلي الذي تعاني منه طائفة كبيرة من المدرسين والمهتمين باللغة وقضاياها . ويلوح لي أحياناً أن انتشار بعض اللغات لا يأتي فقط عن طريق عوامل سياسية واقتصادية وحسب وإنما يأتي كذلك عن طريق العناية الخاصة والجادة في دراسة هذه اللغات وما يبذله علماؤها من جهد خارق لا يقف عند اللغة في حد ذاتها بل يتعداها إلى طالب هذه اللغة ويريد التعرف عليها وامتلاك خصائصها وطرائق التلقي السلبي لها . والاعتقاد الوهمي الذي يسود في الأوساط التعليمية العربية من أن اللغة العربية محفوظة بالقرآن الكريم ولا تحتاج إلى العناية المستمرة

المدروسة والمنظمّة ، ويكذب هذا الاعتقاد الوهمي الجهد الكبير الذي تركه أسلافنا الأوائل وما خلَّفوه من ابتكارات في هذا المجال من أبحاث نظرية ومنهجية كانت وما تزال موضع تقدير علماء اللغات الأجانب وإعجابهم المشوب بالدهشة .

إن الهجمة الحالية على اللغة العربية واستهداف مراكز العناية بها وتدهور وضعها في المدارس والجامعات لا يحتاج إلى دليل ، والمتوقع أن تزداد الهجمة شراسة في ظل العولمة الثقافية والاقتصادية وتوجه العائلات الكبيرة والميسورة إلى تعليم ابنائها اللغات الأجنبية التي تضمن لهم مستقبلاً اقتصادياً وثقافياً يتوافق ويتناغم مع شروط العولمة ومتطلباتها الكونية . ومالم تحدث صحوة وطنية وقومية تتصدى بوعي وبخبرات عالية لهذا المد (المسمى العولمة) ؛ فإن أقل ما ستمنى به اللغة العربية أن تنعزل في المساجد كما أنعزلت اللغة في الأديرة والكنائس ، وكما انعزلت اللغة اللاتينية في الدراسات الجامعية المتخصصة .

من أين يبدأ الإصلاح ؟

سؤال تكرر طرحه مئات المرات ليس في مجال التعليم وحسب ؛ وإنما في مجالات عديدة ، ولم تكن له علاقة من قريب أو بعيد بالإصلاح السياسي والفكري الذي ترغب الولايات المتحدة الأمريكية الآن في فرضه على العرب والمسلمين متذرعة بأسباب غامضة ومثيرة للقلق ومنها الخوف من الإرهاب . ولا يأتي هذا الإصلاح المشبوه ، بالتأكيد ، من حرص هذه الدولة العظمى على تطور الأقطار العربية والإسلامية ومساعدتها في إيجاد حالة من النهوض الشامل في مجالات التقنية ؛ تستطيع بها استبدال الصورة التي تليق بأبناء حضارة كانت في عصر ما أداة تغيير إنساني شامل بالصورة المعاشة ،وإنما يأتي لكي يفرض التغيير العشوائي الهادف إلى حماية مصالح ذاتية وتطلعات لا علاقة لها بتلك الحضارة المعرفية والعميقة والأخلاقية التي عرفت عن الحضارة العربية الإسلامية .

وفيما يتعلق باللغة العربية فإن الإصلاح يبدأ أولاً من إصلاح نحو هذه اللغة وتحريره من قواعد المنطق التي انقلبت عبئاً على كاهل المدرسين ، وحالت بين ملايين الناس ومقدرتهم على امتلاك ناصية اللغة . ويتوقف إصلاح النحو على إصلاح أساليب التدريس وإعداد المعلم ووقف حالة الانحدار والتهميش الذي لحق باللغة العربية

وأعجزها عن النمو واستيعاب التطور المعرفي وما يموج في العصر من ابتكارات ذهنية ومادية . وإصلاح النحو – شأن محاولات الإصلاح الأخرى لا يمكن أن يأتي من الخارج، وإنما يأتي من داخل اللغة العربية نفسها وتنطوي هذه العملية على إسهام العلماء الذين يحترمون هذه اللغة ويحرصون على أن تكون الركيزة الأساسية للنهوض الثقافي والإبداعي في تطويرها . وتقع على المجامع العلمية التي تضم علماء وأكاديميين من مختلف التخصصات مهمة هذا الإصلاح حتى لا يتولاها قوم لا دراية لهم باللغة وقواعدها ومعانيها ولا بنوع التحديات التي تتعرض لها أو الاشكاليات التي يعيشها أبناؤها في دور التعليم وأدوار العمل . ولا بد أن يتزامن الشروع في إصلاح اللغة بإعداد المعلم الذي سيناط به تعليم الجيل المؤهل والقادر على العطاء من خلال لغته الأم وليس من خلال لغات أخرى . إذ كيف يمكن لإنسان أن يعطي لأمته من خارج لغته، وقد أثبتت الوقائع الراهنة أن الذين يجيدون اللغات الأجنبية من دون أن يجيدوا لغتهم الأم يعيشون في أوطانهم علمياً وعملياً كالغرباء عاجزين عن خلق قنوات للتوصيل ونقل ما اكتسبوه من تجارب داخل اللغة الأجنبية . ولعل أفضل ما تحقق لبعضهم أن وجد المترجم الجيد الذي ينقل أفكاره إلى حيث كان ينبغي أن تكون في لغته الأم كما هو الحال – على سبيل المثال – مع المفكر العربي المغترب إدوارد سعيد .

وإصلاح النحو العربي أو تجديده أو تيسير قواعده في العصر الحديث ليس أمراً عسيراً ولا هو دعوة إلى تحطيم ثوابته . ولمثل هذا يشير الدكتور مهدي المخزومي وهو من العلماء المشهود لهم في مجال النحو ، ويؤكد ذلك في كتابه (قضايا نحوية) حيث يرى أن التجديد المطلوب لا يقتضي سوى العودة الواعية إلى الإصلاحات التي اقترحها علماء نحو سابقون أمثال أبن مضاء القرطبي . ومن المحزن أن الدكتور المخزومي عاش ورحل قبل أن يلتفت أحد إلى صرخته التي رددها في مقدمة كتابه المشار إليه حين قال : « مازال الدرس النحوي معضلة يواجهها الدارسون ، و مشكلة ، لا تزال تستعصي على الحل ، والخسار إنما يقع على الأجيال المتعاقبة التي عانت هذه المشكلة وعايشتها ، وأرادت حلاً ، ولكن الحصار المضروب حولها من الفكر المحافظ المتشدد إلى الوراء كان سوراً منيعاً من التقاليد ومن عبادة القديم لأنه قديم ، حتى إن أصوات الاستغاثة كانت ترتد عنه أصداءً باهتة لا تلبث أن تضمحل ، لأنها كانت تنشد الحل عن أولئك الدارسين الذين كانوا هم أنفسهم قد وضعوا الدرس في هذه المحنة إذ درسوه في غير منهجه ، وأنحرفوا به إلى وجهة أخرى لا تلائم طبيعته ، ومهدوا الدرب للمنطق والكـــــــلام أن يتسللا إلى أبوابه وفصوله ، وموضوعاته اللغوية الخالصة . »(٤)

اللغة العربية في المدارس

الواقع العشوائي للمناهج

عندما تزور أية مؤسسة تعليمية في الأقطار العربية فإن أول ما يواجهك حديث المناهج ، وحرص هذه المؤسسات على تطبيق هذه المناهج . وحين تتاح لك فرصة مراجعة هذه المناهج ومتابعة سير تطبيقها تجد العجب . إذ ينبري الضعف الواضح في بنية هذه المناهج يرافقه ضعف أكبر في التنفيذ . فالموجود على الورق لا أساس له في الواقع . . وهو صورة لحالة الانفصام التي تشكل حياتنا العربية في كل منحى من مناحيها دون استثناء ، فالمنهج – عند كثير من هؤلاء المشرفين على تخطيط المناهج – لا يعني الطريق النظري إلى العمل التطبيقي بل المبرر النظري لغياب التطبيق . . وأجزم أن هذه الحالة لا تسود قطراً عربياً دون آخر ، وان بدت في بعض هذه الأقطار في حالة من الوضوح الصارخ حيث تعتمد المناهج أسلوب العشوائية في تدريس المواد المقررة سواء كانت مادة اللغة العربية أم غيرها من المواد . فالتلاميذ في الابتدائية و الثانوية لا يفشلون في مادة اللغة العربية وفي استيعاب قواعدها الأولية وحسب ، وإنما يفشلون في استيعاب كل المواد المقررة عليهم . وما يحصلون عليه منها عن طريق الاستظهار لا يكفي للفهم والتمثل ، وإنما يكفي من وجهة نظر المسئولين للنجاح في الامتحانات التي أصبحت غاية الغايات

عند هؤلاء ولم تعد – كما كانت وكما ينبغي أن تكون – وسيلة لفحص قدرات التلميذ على فهم المفردات العلمية التي تؤهله ليكون واحداً من المشاركين في صياغة المستقبل والوعي بقوانين التحولات العلمية والثقافية .

إن الخطط العشوائية لتدريس المواد المقررة في المدارس زائداً جهل غالبية المدرسين لما يقومون بتدريسه سبب كافٍ لتخلف مستويات التعليم في الأقطار العربية . فضلاً عن ضعف إعداد هؤلاء المدرسين وما يترتب عليه من غياب حماستهم لما يدرسونه ، وفشلهم بالتالي في تحبيب اللغة لدارسيها ، علماً بأن المعلم هو الذي حفظ للغة اليابانية والصينية – على صعوبتهما – استمرارها . . وإن المعلم الجيد كان وسيبقى حجر الزاوية في بناء الأمم ونهوضها وتنشئة أجيال تبدع وتضيف في لغتها وتضمن بذلك رقي أمتها ، وتطور إبداعها العلمي والفني والأدبي .

إن غياب الذات الفاعلة في هذه المجتمعات التي تزداد تخلفاً مع ازدياد أعداد "المتعلمين" الذين ينزعون إلى أن يكونوا أجزاءً من الجهاز الحكومي العاطل والمترهل والذين لا يقدمون خدمة حقيقية لأنفسهم ولبلادهم التي ينتمون إليها ، في حين كانوا في بداية حياتهم يحلمون بأن يكونوا جزءاً من القوة الفاعلة في تطورها وتحررها من سيطرة التخلف وما يرافقه من ظلم داخلي وهيمنة خارجية ، وما أكثر ملايين العقول الطامحة التي جمدها التعليم الناقص وجعلها جزءاً من الكم الإنساني التراكمي المستهلك ، بدلاً من

أن يعمل على استنارتها وتفتحها . إن قصور التعليم وغياب الترشيد المنزلي وطغيان أساليب التسلية المحققة عن طريق الفضائيات وغياب العناية بالكتاب بوصفة أداة المعرفة الأولى والأهم قد جعل بعض الدارسين يقترحون الإكثار من معارض الكتاب ومهرجاناته إلى درجة أن تصبح أسبوعية أو شهرية بهدف « دعوة الناس إلى عالم الكتب وعالم القراءة وإثارة الاهتمام بحركة التأليف والنشر . . . . . ونظراً لانبهار معظم الناشئة في هذا العصر بالعلوم والتقنيات الحديثة وانشغالهم بها عن الأدب وجهلهم أو تجاهلهم لدوره وأثره في الحياة ، لذلك فإن من المقترح أن يتم التركيز على المعارض أو المهرجانات المذكورة على إبراز النتاجات الأدبية المتميزة ، ويتم التنبيه إلى أهمية الأدب وإلى أثره الايجابي الكبير في تنمية اللغة وفي تنمية الخيال العلمي والقدرات الإبداعية وفي تطوير المجتمع ورقيه الحضاري . . . ويعمل على إظهار امكان أن يجتمع العلم مع الأدب ، وان يجتمع التفكير العلمي الدقيق مع الإحساس الأدبي والذوق الفني الجميل في شخص واحد ، فينشأ الشاعر الطبيب والمهندس القصاص والعالم الفنان » (٥)

إن اللغة — أية لغة — ليست بديلاً عن المعرفة ، لكنها بالضرورة وسيلة الوصول إلى هذه المعرفة ، ومن شأنها أن تلعب الدور الجوهري في بلورة المعارف وفي تحديد سماتها . وإهمال اللغة العربية وعدم العناية بها وبمدرسيها يؤدي إلى الحال الذي نعاني منه، وحتى لا يتهمنا أحد بالمبالغة ينبغي أن نعترف بأن هناك عوامل أخرى ساعدت

على أن تصل أوضاع العرب إلى ما وصلت إليه . إلاَّ أن اللغة ، هي العنوان الصارخ لإرتباطها الوثيق بنظام التعليم وصياغة الثقافة الجماعية . لقد كان التعليم العام في المدارس العربية في الستينيات – فترة الازدهار القومي – أفضل منه الآن بما لا يقاس وهو مما يؤسف له . وهذا يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك في أن صمود النزوع القومي الذي كان سائداً في تلك الفترة وما رافقه من فورة تدعو إلى الاعتزاز بكل ما هو عربي من آداب وفنون واقتصاد ، قد ساعد على نمو اللغة العربية ودفع بعجلة التعريب في المغرب العربي وفي الجزائر على وجه الخصوص . وعندما بدأ ذلك المد القومي في الانحسار بدأ معه إنحسار مماثل في البرامج التعليمية ، وقلت العناية باللغة العربية في المدارس . وبدأت المدارس الخاصة ثم الأجنبية في الظهور بعيداً عن المراقبة والمتابعة ، وهي مدارس تجارية يغلب عليها البحث عن الربح لا إعداد أجيال ذات قدرات إبداعية وعلمية عالية هادفة إلى تطوير المجتمع ورقية .

وفي مناخ هذا الانحسار واختلال المعايير بدأ الاتجاه يشتد إلى البحث عن البديل الموهوم حيث « يغلب اقبال الناس في عصرنا الحاضر على تعلم اللغات الأجنبية ، إما لأن هذه اللغات كما سبق القول مفروضة في مجال التعليم أو العمل ولا مناص من ممارستها ومن تكريس الاهتمام بها ، أو لتوافر فرص العمل المغرية والداعية لتعلمها والمشجعة على تغليب الاتجاه إليها ، أو لمجرد التعلق والانبهار بها واعتبارها عنواناً للتقدم والحضارة ،

ومهما كان سبب هذا الإقبال أو الانبهار فإنه يقلل بلا شك من فرص الاتجاه لتعليم اللغة الأم، كما يقلل من ممارستها ومن تداول مفرداتها ، مما يؤدي بالتالي إلى قلة الرصيد من هذه المفردات . إن تعلم اللغة الأجنبية يعد بلا ريب مغنماً لا يستهان بقيمته ، غير أن غلبة الاهتمام به والتكريس من أجله يكون على حساب اللغة الأم ويؤدي إلى إضعافها وإلى تقليل البراعة في استخدامها ، وان اختلف مدى هذا الضعف بحسب اختلاف السن والخلفية الثقافية التي يمتلكها الفرد وبحسب نوعية الممارسة لهذه اللغة . . . . . ان غلبة الاهتمام باللغات الأجنبية ، ولاسيما في مجالات تعليم العلوم ، أدت فيما يبدو إلى تقليص حركة التأليف والتصنيف باللغة الأولى وإلى الاكتفاء أحياناً بما يستورد من الكتب والمقررات والمراجع المدونة باللغات الأجنبية التي تعتمد التدريس والتعويل عليها . وقد زاد ذلك بدوره من غلبة استخدام المصطلحات والتعبيرات الأجنبية وساعد في سريانها على الألسن وتسربها إلى اللغة في أوساط المؤسسات المذكورة فقلل بذلك فرص استعمال مقابلاتها العربية ومن فرص استخدام اللغة وإنعاش مخزونها اللفظي عن طريق القراءة والكتابة بوجه عام »(٦)

أعترف أنني أطلت الاقتباس وشافعي في ذلك أهمية ما أحتواه المقتبس من رؤية عميقة تنسجم مع النتيجة التي يسعى هذا البحث المتواضع إلى الوصول إليها وتأكيدها بإبراز خطورة انحسار اللغة العربية في المدارس ، وفي الحياة حيث صارت اللغة العربية في

عدد من الأقطار العربية – ان لم يكن فيها جميعاً – تكاد تكون اللغة الثانية في المعاملات الاقتصادية بخاصة ، وكلما مرّ الوقت زادت المخاطر وزادت المؤسسات اغتراباً عن اللغة القومية ، وقد ترتب على ذلك الاغتراب إيجاد حالة من العزوف عن تعلّم اللغة العربية ومن ثم القراءة بها أو الاعتزاز بموروثها الروحي والأدبي والفكري .

اللغة العربية في الجامعات العربية:

لا شك أن محنة اللغة العربية مع الجامعات تبدو أكثر سواداً وقتامة ، فالجامعات في نهاية الأمر ليست سوى مؤسسات علمية أعلى لاستقبال الطلاب القادمين إليها من التعليم العام بكل تناقضاته وعيوبه ، وكنت بعد خبرة طويلة في التدريس الجامعي ومتابعة تدهور التعليم العام أردد بوضوح وعلى مسمع من المسئولين في بلادي أن على الجامعات على كثرتها أن تكتب على أبوابها الرئيسة السؤال الآتي : " وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر ؟ ! " . والعطار هنا ، هو الجامعات المؤمل فيها أن ترتقي بالتعليم ، وأن تعد الأجيال للمتغيرات المتلاحقة . أما الدهر المُفسد ، فهو التعليم العام الذي عجز عن إعداد أبنائه للمشروع الكبير ، مشروع النهوض بالأمة ، والخروج بها من محنة المراوحة في مكان البحث عن المعين الآخر .

يأتي الطالب من التعليم العام إلى الكليات النظرية والعلمية وقد نسي كل أو أغلب ما تعلمه في الإعدادي والثانوي من مبادئ اللغة العربية واللغة الأجنبية باستثناء أولئك الطلاب الذين يدرسون في المدارس الأجنبية ، ولا يكادون يعرفون شيئاً عن لغتهم العربية، ويطلق عليهم زملاؤهم حملة الثانوية الرسمية لقب " الخواجات " لأنهم لا يجهلون قواعد اللغة العربية وحسب ؛ بل لا يجيدون التعامل معها بالطريقة التي يجيدها رجل الشارع الأمي الذي لم يسبق له أن دخل مدرسة وذلك بعد أن التوت ألسنتهم وصاروا يترددون ويتلتون قبل أن ينطقوا جملة مفيدة . إن آباء هؤلاء الطلاب لا يؤمنون – كما يقول بعضهم – إلاَّ بلغة السوق . ولغة السوق في هذه المرحلة هي اللغة الأجنبية . وهم يعتقدون أن الأنظمة العربية التي تشير في دساتيرها إلى أن اللغة الرسمية للبلاد هي اللغة العربية قد عزلت مصلحة المواطن عن لغته عندما سمحت للمؤسسات الاقتصادية أن تكون اللغة الأولى فيها هي اللغة الأجنبية . وفي حالة عزل مصلحة المواطن عن لغته سيجد نفسه مضطراً – عاجلاً أو آجلاً – إلى البحث عن لغة تحقق مصلحته وتضمن له حياة كريمة مهما كان شعوره العاطفي نحو اللغة الأم ، تلك التي أصبحت لغة معزولة عن الحياة وعاجزة عن استيعاب الواقع المعاصر بغوامضه وخفاياه كما يقول ويردد المتعصبون ضد اللغة العربية .

يبدأ تدريس الطالب في جامعة صنعاء – على سبيل المثال – قواعد اللغة العربية من الصفر ، من أقسام الكلمة وانتهاءً بقواعد الأفعال والأسماء والحروف . ويكون تعليم اللغة العربية إلزاماً لطلاب جميع الكليات ، بما فيها الكليات العلمية بوجه أخص . وإن كانت هذه التجربة لم تؤد الغرض على النحو المطلوب لاقتصار التدريس على سنتين جامعيتين ، وكان من المفترض أن يدرس الطالب لغته العربية ومعها لغة أجنبية على مدى سنوات الدراسة الجامعية التي تكون في بعض الكليات أربعاً وفي بعضها الآخر خمساً أو ستاً كما هو الحال في كلية الطب .

وما يثير الأسى ، بل البكاء أن مسئولين وأساتذة في الجامعات العربية يتندرون على تعليم طالب الطب اللغة العربية ويتساءلون بشيء من السذاجة ان لم نقل بشيء من الوقاحة وما الذي " يفيد طالب الطب من نحو سيبويه ؟ !" ، ورحم الله الدكتور محمد كامل حسين وأمثاله من الأطباء الأساتذة في اللغتين العربية والإنجليزية وربما الفرنسية . وكم يكون موضعاً للرثاء ذلك الطبيب الذي يعجز عن كتابة بحث لينشره في مجلة عربية، أو كيف يكون وضع الطبيب الأستاذ الذي يحاضر طلابه بلهجة عامية سقيمة تتخللها بعض الجمل أو المصطلحات الأجنبية !

إن واقع اللغة العربية في المدارس والجامعات العربية يستدعي انتفاضة وطنية تعيد الثقة إلى لساننا العربي الفصيح ، وإلى الاعتراف بقدرة هذا اللسان على تدريس

العلوم والمهارات الحديثة بمستويات يعجز الطالب عن الوصول إليها بألسنة الآخرين . ومن المؤسف والمحزن معاً أن نبرهن على ما نذهب إليه بما يفعله الكيان الإسرائيلي الذي جعل من العبرية الميتة لغة الخطاب والدرس في المدارس والجامعات والمؤسسات من دون أن يهمل العناية باللغات الأخرى أو يجعلها بديلاً عن لغته الميتة الهشة التي كان الزمن قد أكل عليها وشرب ، ولم تعد صالحة سوى لاسترجاع الأحزان التوراتية .

وخلاصة القول : إن المعادلة الصعبة في المشكل اللغوي الراهن ينبغي أن تعطي التعليم العام ما يستحقه من اهتمام ، فالتعليم العام هو القاعدة الأساسية للتعليم بعامه ، وللتعليم العالي بخاصة فالمخرجات الهزيلة التي يلقي بها التعليم العام سنوياً إلى الشارع أو إلى الجامعات ، تعكس نفسها على الحياة وعلى اللغة ، وتقف حجر عثرة في طريق المتغيرات الثقافية التي تهز سكون العالم . وما ينبغي التأكيد عليه أنه لا نمو ولا ازدهار في الاقتصاد والصناعة والزراعة ما لم تتم الاستجابة لدعوة إصلاح التعليم منذ مراحله الأولى وحتى مستوياته العالية ، وهي دعوة داخلية وطنية قومية دينية لا يصح أن تكون لها علاقة من قريب أو بعيد بالدعوات المشبوهة القادمة من الخارج ، تلك الدعوات الهادفة إلى إنجاح مشروع العولمة ، وفرض مزيد من الاحباطات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية . ودعوتنا هذه لا ترى مانعاً من الاستفادة مما وصل إليه الآخرون من تطوير في

المناهج والأساليب والأدوات التي مكنت لهم النجاح في نظامهم التعليمي وصارت معايير علمية كونية .

ولضرورات لغوية خالصة ، تهدف إلى تأكيد أهمية تيسير قواعد النحو العربي، أختم هذا البحث بالفقرة الآتية من كتاب (قضايا نحوية) للدكتور مهدي المخزومي وفيه يقول : « إن شغف النحو بمناهج المتكلمين الأصوليين كان قد حملهم على تناول اللغة، وكأنها درس نظري ، ونظروا إلى قوانينها وكأنها قوانين عقلية ، فتباعد ما بين قواعده وموضوع دراستهم ، وصاروا يتكاثرون بالتعمق ، ويتبارون في الإبعاد والتأويل ، حتى صار النحو مجموعة من الأصول النظرية الجافة ، ولكن النحو أبعد ما يكون عن الجفاف والجمود ، بل لا تعرف دراسة أمتع ولا أكثر حيوية منه لأنه ظاهرة انسانية يستمد حيويته من الإنسان في نفسه . » (٧)

هوامش :

١- د . سيار الجميل : "ألف يا " مجلد ثقافي فصلي العدد الأول يصدر عن جريدة الزمان ، ص ١٠٥ ، ٢٠٠١م .

٢- فاروق شوشه: لغتنا الجميلة : ص ٨ ، دار العودة ، بدون .

٣- د . الغالي أحرشاو : الطفل واللغة ، ص ١٤ المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، ١٩٩٣م .

٤- د . مهدي المخزومي : قضايا نحويه : ص ٧ ، المجمع الثقافي ، أبو ظبي ، الإمارات، ١٩٩٣م .

٥- د . أحمد محمد المعتوق : الحصيلة اللغوية ، أهميتها ، مصادرها وسائل تنميتها ، ص ١٥٠ ، عالم المعرفة ، ١٩٩٦م ، .

٦- المصدر نفسه ، ص ١٧ .

٧- د . مهدي المخزومي : قضايا نحوية : ص ٤٢ .

مجمع اللغة العربية
القـــاهـــــرة

اللغة العربية في دور التعليم

"المدارس والجامعات والمعاهد العليا"

أ.د/ عبد العزيز المقالح